الفصل الأول

حقيقة الصبر في القرآن وضرورته

• كم ذُكِرَ الصبر في القرآن ؟

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التى عنى بها الكتاب العزيز فى سوره المكية والمدنية . وهو أكثر خُلُقٍ تكرر ذكره فى القرآن .

يقول الإمام الغزالى فى كتاب «الصبر والشكر» من «ربع المنجيات» من كتابه «إحياء علوم الدين» : ذكر الله تعالى الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً [١].

وينقل العلامة ابن القيم فى «مدارج السالكين» عن الإمام أحمد قوله : الصبر فى القرآن فى نحو تسعين موضعاً [٢].

وكذلك ينقل أبو طالب المكى فى «قوت القلوب» عن بعض العلماء قوله : أى شىء أفضل من الصبر ، وقد ذكره الله تعالى فى كتابه فى نيف وتسعين موضعاً ؟!

ولا نعلم شيئاً ذكره الله تعالى هذا العدد إلا الصبر [٣].

والناظر فى «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» يجد مادة (ص ب ر) بكل مشتقاتها قد وردت فى القرآن مائة مرة وبضع مرات .

ولا تنافى - فى رأيى - بين هذه التقديرات على اختلافها ، وبين الإحصاء الرقمى للمعجم المفهرس ، لأن الموضع الواحد قد تذكر فيه مادة (ص ب ر) أكثر من مرة ، فيحسبها بعضهم موضعاً واحداً ، وبعضهم موضعين أو أكثر . مثال ذلك فى قوله تعالى فى أواخر سورة النحل ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (النحل:١٢٦،١٢٧) . فالمادة هنا ذكرت أربع مرات فى آيتين ، بحيث يمكن أن تُحسب موضعاً واحداً ، وأن

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ صـ٦١ ، ط . دار المعرفة بيروت .

(٢) مدارج السالكين جـ٢ .

(٣) قوت القلوب جـ١ صـ١٩٧ .

تحسب موضعين باعتبارين ، وفى قصة موسى مع العبد الصالح فى سورة الكهف[1] تردد ذكر الصبر عدة مرات ، ويمكن اعتبارها كلها موضعاً واحداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ (الأحزاب:٣٥) موضع واحد بلا شك . . . وهكذا .

والصبر فى اللغة : الحبس والكف . ومنه : قُتِلَ فلان صبراً ، إذا أُمسك وحُبس .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ (الكهف:٢٨) أى احبس نفسك معهم .

ويقابل الصبر : الجزع . كما فى قوله تعالى على لسان أهل النار : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم:٢١) .

وهو فى القرآن يعنى : حبس النفس على ما تكره ، ابتغاء مرضاة الله . كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ (الرعد:٢٢) .

• أنواع الصبر فى القرآن

وما تكرهه النفس أنواع وألوان شتى ، ولهذا تتسع دائرة الصبر فتشمل مجالات رحبة أكثر مما يقف عنده ـ عادة ـ كثير من الناس إذا ذُكرت كلمة « الصبر » .

يقول الإمام الغزالى : « اعلم أن الصبر ضربان أحدهما : ضرب بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل ، كتعاطى الأعمال الشاقة ، إما العبادات أو من غيرها . وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد ، والمرض العظيم ، والجراحات الهائلة ».

قال الغزالى : « وذلك قد يكون محموداً إذ وافق الشرع ».

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ، ومقتضيات الهوى .

ثم هذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمى عفة .

---

(١) الكهف : ٦٧ وما بعدها .

وإن كان عن احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر .

فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم «الصبر» وتضاده حالة تسمى «الجزع والهلع» وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب وغيرها .

وإن كان فى احتمال الغنى سمى «ضبط النفس» وتضاده حالة تسمى «البطر».

وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى «شجاعة» ويضاده «الجبن» .

وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى «حلماً» ويضاده «التذمر» .

وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة ، سمى «سعة الصدر» ويضاده «الضجر والتبرم وضيق الصدر» .

وإن كان فى إخفاء كلام سمى «كتمان السر» وسمى صاحبه «كتوماً» .

وإن كان عن فضول العيش سمى «زهداً» ويضاده «الحرص» .

وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمى «قناعة» ويضاده «الشره».

فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر .

ولذلك لما سئل عليه الصلاة والسلام مرة عن الإيمان قال : «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها . كما قال : «الحج عرفة» .

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك ، وسمى الكل صبراً فقال تعالى : ﴿ **وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ** (أى المصيبة) **وَٱلضَّرَّآءِ** (أى الفقر) **وَحِينَ ٱلْبَأْسِ** (أى المحاربة) **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ** ﴾(البقرة:١٧٧) .

فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها ، ومن حيث رأى الأسامى مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم ، وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعانى أولاً ، فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامى ، فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابد أن يزل» اهـ [1].

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ صـ٦٦،٦٧ .

وهذا كلام نفيس ، وتحقيق جليل .

ومن هنا نفهم كيف جعل القرآن الصبر وحده مناط الفلاح فى الآخرة ، ودخول الجنة واستحقاق التحية من الملائكة ، وذلك فى مثل قوله تعالى فى شأن الأبرار من عباده : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الإنسان:١٢) ، وفى شأن عباد الرحمن : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ (أى الجنة) بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ (الفرقان:٧٥) ، وفى شأن أُولى الألباب من عباده الأخيار : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد:٢٣،٢٤) فالصبر هنا يحمل فى طياته جملة شعب الإيمان ، وأخلاق الإسلام .

● الصبر خصيصة إنسانية

ولما كان الإنسان هو المخلوق العاقل المكلف المبتلى ، كان الصبر خصيصة من خصائصه المميزة .

يقول الإمام الغزالى فى تحليل معنى الصبر وبيان حقيقته :« الصبر خاصية » الإنس ، ولا يُتصور ذلك فى البهائم ولا الملائكة ، أما البهائم فلنقصانها . وأما الملائكة فلكمالها .

وبيانه : أن البهائم سُلِّطَتْ عليها الشهوات ، وصارت مُسَخَّرة لها ، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة « صبراً » .

وأما الملائكة عليهم السلام ، فإنهم جُرِّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، والابتهاج بدرجة القُرب منها ، ولم تُسلط عليهم شهوة صارفة صادَّة عنها ، حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

أما الإنسان فإنه خُلِقَ فى ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يُخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والريبة ، ثم شهوة النكاح (الشهوة الجنسية) على الترتيب . وليس له (يعنى فى طفولته) قوة الصبر ألبتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند فى مقابلة جند آخر ، قام القتال بينهما ، لتضاد مقتضاتهما ومطالبهما . وليس فى الصبى إلا جند الهوى كما فى البهائم » .

ثم يبين الإمام الغزالى أن الله تعالى بفضله وسعة جوده ، أكرم الإنسان ورفع درجته عن البهائم ، فأمده ـ عند مقاربة البلوغ ـ بقوتين : قوة تهديه إلى معرفة الحقائق الكبيرة ، بها يعرف الله ورسوله ، ويعرف المصالح المتعلقة بالعواقب ، وبها يتميز عن البهيمة التى لا تهتدى إلا إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط . فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة .

وقوة أُخرى مكملة للأولى تؤيد الإنسان وتشد أزره فى معركته مع الهوى وجند الشيطان ، بها يدفع فى نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة ، حتى يدفع عداوتها عن نفسه .

قال الغزالى : « فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها « باعثاً دينياً » ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها « باعث الهوى » ، وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال . ومعركة هذا القتال قلب العبد . ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله ، والتحق بالصابرين . وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين » ا هـ [1].

• ضرورة الصبر

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر ، إلى ما له من قيمة كبيرة دينية وخُلُقية ، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكَمِّلة ، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى مادياً ومعنوياً ، ويسعد فردياً واجتماعياً ، فلا ينتصر دين ، ولا تنهض دنيا إلا بالصبر .

فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية .

فلا نجاح فى الدنيا ، ولا فلاح فى الآخرة إلا بالصبر .

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ صـ٦٢،٦٣ .

فى الدنيا ، لا تتحقق الآمال ، ولا تنجح المقاصد ، ولا يؤتى عمل أكله إلا بالصبر . فمن صبر ظفر ، ومن عدم الصبر لم يظفر بشىء . .

لولا صبر الزارع على بذره ما حصد ، ولولا صبر الغارس على غرسه ما جنى ، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج ، ولولا صبر المقاتل فى ساح الوغى ما انتصر . وهكذا كل الناجحين فى الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر ، استمرأوا المر ، واستعذبوا العذاب ، واستهانوا بالصعاب ، ومشوا على الشوك ، وحفروا الصخور بالأظافر ، ولم يبالوا بالأحجار تقف فى طريقهم . والطعنات تغرس فى ظهورهم ، وبالشراك تنصب للإيقاع بهم ، وبالكلاب تنبح من حولهم ، بل مضوا فى طريقهم غير وانين ولا متوقفين . مغضين الأعين على القذى ، ساحبين الذيول على الأذى ، متذرعين بالعزيمة ، مسلحين بالصبر . وما أصدق قول الشاعر :

وقَلَّ مَنْ جَدَّ فى أمر يحاوله ... واستصحبَ الصبرَ إلاَّ فازَ بالظفر

قد يعثرون ثم لا يلبثون أن ينهضوا ، وقد يخطئون ثم يوشكون أن يصيبوا . وقد يجرحون ثم لا يلبث جرحهم أن يندمل . وقد يفشلون مرة ومرة فلا يلقون السلاح ، ولا يستسلمون لليأس ، ولا يفقدون نور الأمل . شعارهم قول الشاعر الحكيم :

لا تيأسن وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

لقد عرف عُشَّاق المجد ، وخُطَّاب المعالى ، وطُلاَّب السيادة ، أن الرِفعة فى الدنيا كالفوز فى الآخرة ، لا تنال إلا بركوب متن المشقات ، وتجرع غصص الآلام ، والصبر عن كثير مما يحب ، وعلى كثير مما يكره . وبدون هذا لا يتم عمل ، ولا يتحقق أمل ، ومن تخيل غير هذا الطريق كان كالذى قال لابن سيرين : إنى رأيتنى فى النوم أسبح فى غير ماء ، وأطير بغير جناح ! ! فقال له : أنت رجل كثير الأمانى والأحلام ، تتمنى ما لا يقع ، وتحلم بما لا يتحقق ! !

وفى شعر الحكم نقرأ كثيراً فى هذا المعنى . يقول أحدهم :

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ويقول المتنبى ، وقد كان طموحاً لمنصب الولاية :

لا يبلغ المجد إلا سيد فطن ... لما يشق على السادات فعَّال

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتّال !

وفى قصيدة أُخرى يقول مخاطباً نفسه :

ذريني أنل ما لا ينال من العلا فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل!

تريدين إدراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل !

وإذا كانت هذه طبيعة الطريق الموصلة إلى العلا والمجد ، فلا سبيل إلى اجتيازها إلا بالصبر ، ولا يقدر عليها إلا الصابرون .

والصبر مفتاح ما يُرجى وكل صعب به يهون

فاصبروا وإن طالت الليالى فربما أسلس الحرون

وربما نيل باصطبارٍ ما قيل : هيهات لا يكون

هذا إذا نظرنا إلى النجاح فى الدنيا . فكيف إذا نظرنا إلى الفلاح فى الآخرة ؟ !

إن الحاجة إلى الصبر تبدو هنا أوكد ، والضرورة إليه أشد وألزم .

يقول أبو طالب المكى فى كتابه « قوت القلوب » : « اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة ، وسبب النجاة من النار ، لأنه جاء فى الخبر : « حُفت الجنة بالمكاره ، وحُفت النار بالشهوات ». فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ، ليدخل الجنة ، وإلى صبر عن الشهوات ، لينجو من النار »[1].

وفى مقام آخر يقول : « واعلم أن كثرة معاصى العباد فى شيئين : قلة الصبر عما يحبون ، وقلة الصبر على ما يكرهون »[2].

الصبر إذن ضرورة للناس عامة ، وللمؤمنين خاصة .

والقرآن يشير إلى ضرورة الصبر وأهميته ، حين يحدثنا عن خَلقْ الإنسان وما حُفَّ به من ابتلاء ومكابدة ومعاناة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان:٢) ويقول ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ (البلد:٤) أى فى شدة ومشقة ، لما يعانيه منذ مولده من شدائد الحياة الممزوجة اللذات بالآلام ، وما يعانيه بعد بلوغه من الابتلاء بالمسئولية وأمانة التكليف ، التى تنوء بحملها السموات والأرض والجبال ، وما يعانيه من الناس من حدة اللسان ، وأذى اليد وحسد النفس .

---

(١) قوت القلوب جـ١ صـ٢٠٠ .

(٢) المرجع السابق صـ١٩٩ .

• ضرورة الصبر للمؤمنين

وإذا كان هذا شأن الإنسان بصفة عامة ، فأهل الإيمان ـ على وجه خاص ـ أشد تعرضاً للأذى والمحن والابتلاء فى أموالهم وأنفسهم وكل عزيز لديهم ، فقد اقتضى نظام الكون أن يكون لهم أعداء يمكرون بهم ويكيدون لهم ويتربصون بهم الدوائر ، كذلك جعل الله لآدم إبليس ، ولإبراهيم نمروذ ، ولموسى فرعون ، ولمحمد أبا جهل وأمثاله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الفرقان: ٣١)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام: ١١٢) .

وكذلك يكون المؤمنون من أتباع الأنبياء ، هم أشد الناس بلاء بعد الأنبياء : الأمثل فالأمثل .

ومن ظن أن طريق الإيمان مفروشة بالأزهار والرياحين ، فقد جهل طبيعة الإيمان بالرسالات ، وطبيعة أعداء الرسالات .

ولعل هذا الحسبان أو الوهم داخل نفوس بعض المؤمنين فى العهد المكى بعد أن أصابهم من العذاب ما أصابهم ، فنزل قوله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (العنكبوت: ١-٣).

بل فى العهد المدنى نجد القرآن المدنى ينفى مثل هذا الحسبان الواهم ، فى مثل قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: ٢١٤) .

الجنة إذن لا بد لها من ثمن ، وهى سلعة غالية ، فلا مفر من الثمن . وقد دفعه أصحاب الدعوات من قبل ، فلا بد أن يدفعه إخوانهم من بعد . وهذا هو ثمن الجنة : الصبر على البأساء تصيب الأموال ، والضراء تصيب الأبدان .

والزلزلة تصيب النفوس . ولا بد أن يبلغ الزلزال النفسى من الشدة إلى حد يقول عنده الرسول ـ أى رسول ـ والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ يستبطئونه فقد طال انتظارهم له ، وطالت فترة الأذى عليهم وطالت شماتة العدو بهم فمتى يجىء إذن نصر الله الموعود ؟ !

وفى أعقاب غزوة أُحد ، التى مَسَّ المسلمين فيها من القرح ما مَسَّهم ، وفقدوا سبعين شهيداً من أبطالهم ، ينزل القرآن فيقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾(آل عمران:١٤٢) .

وفى سورة التوبة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾(التوبة:١٦) .

ومن هنا أمر القرآن المؤمنين أن يستعينوا بعدتى الصبر والصلاة على ما يواجههم من محن فى سبيل دعوتهم ، فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(البقرة:١٥٣) . ثم عزَّاهم فيمن فَقدوا من أحبابهم ممن اتخذهم الله شهداء فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾(البقرة:١٥٤) .

ثم بيَّن ما ينتظرهم من ألوان البلاء ، مؤكداً ذلك بلام القسم ونون التوكيد ، إذ يقول :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

(البقرة:١٥٥،١٥٦)

فالبلاء هنا بلاء عام ، يصيب القلوب بالخوف ، والبطون بالجوع ، والأموال بالنقص ، والأنفس بالموت ، والثمرات بالآفات . ومن لطف الله تعالى ورحمته هنا أنه جعل البلاء : ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ ... ﴾ إلخ ، وتنكير « شىء» هنا ـ كما يدل عليه السياق ـ للتقليل والتحقير ، لأن ما هو أكثر وأكبر لا يطيقونه ، فمسَّهم بشىء قليل من البلاء ، تخفيفاً عنهم ، ورحمة بهم ، وتقديراً لضعفهم .

ومثل هذا التأكيد على ضرورة البلاء للمؤمنين خاصة ، ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن

قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (آل عمران:١٨٦) .

وهنا عدة ملاحظات فى هذه الآية الكريمة جديرة بالانتباه والتسجيل :

الأولى : أن الله تعالى وصف الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة ﴿ أَذًى كَثِيرًا ﴾ ، وهذا يدل على أن حرباً كلامية ستُعلن على أهل الإيمان ، لتشويه دعوتهم ، وتلويث سمعتهم ، والتشكيك فى سيرتهم وسريرتهم ، وهى حرب أسلحتها الدس والتحريف والافتراء ، فلا بد أن يوطن المؤمنون أنفسهم على احتمال مكارهها ، ويصبروا على تجرع غصصها ، حتى يحق الله الحق ويُبطل الباطل .

الثانية : أن الآية قرنت هنا بين الصبر والتقوى ، فلم تكتف من المؤمنين بالصبر وحده حتى يجمعوا على تقوى الله تعالى . ومعنى التقوى هنا : التعفف عن مقابلة الخصوم بمثل أسلحتهم الدنيئة ، فلا يواجه الدس بالدس ، ولا الافتراء بالافتراء ، لأن المؤمنين تحكمهم قيمهم الأخلاقية فى السلم والحرب والرخاء والشدة..

الثالثة : أن الآية قرنت كذلك بين الذين أوتوا الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ وبين الذين أشركوا من الوثنيين العرب ومن على شاكلتهم ، هذا مع اختلاف الفريقين فى الدين والوجهة . وفى هذا إشارة إلى أن عداوتهم لأهل الإسلام وحَّدت بينهم على ما بينهم من اختلاف . وهذا ما أثبته التاريخ قديماً ، وأثبته الواقع حديثاً . أثبته التاريخ حينما وجدنا اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ ينضمون إلى جهة المشركين عُبَّاد الأوثان من قريش وغطفان وغيرهما فى حرب النبى ﷺ ، إلى غير ذلك من وقائع التاريخ .

وأثبته الواقع المعاصر ، حيث وجدنا اليهودية العالمية ، والشيوعية الدولية ، والصليبية الغربية والشرقية تختلف فيما بينها أشد الاختلاف ، ثم تتناسى هذا كله حين يكون العدو هو الإسلام ، فتجتمع كلمتها على حرب أمة الإسلام ودعوة الإسلام . وهذا مصداق ما جاء فى القرآن : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال:٧٣) ، ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (الجاثية:١٩) .

ومن هنا قرر فقهاؤنا : أن الكفر كله ملة واحدة .

• ضرورة المحن لأهل الإيمان

وإنما كانت المحن ضرورة لأهل الإيمان لجملة معان وحكم نبَّه عليها القرآن ، وخصوصاً فى أعقاب غزوة أُحد ، منها :

١- تطهير الصف المؤمن من أدعياء الإيمان من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض . فإبَّان العافية والسراء يختلط فيها الحابل بالنابل ، والخبيث بالطيب ، وإنما يقع التمييز بين الأصيل والدخيل بالمحن والبلاء ، كما يتميز الذهب الحقيقى من الزائف بالامتحان بالنار .

وفى هذا يقول فى سورة آل عمران التى نزل نحو ثمانين آية منها بعد أُحد : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران: ١٧٩)

إن من الناس من يدخل فى زمرة المؤمنين ويلبس لبوسهم ، ويتكلم بلسانهم فإذا أصابته فتنة أو محنة فى سبيل دينه ، خارت قواه ، وانحلت عراه ، وبرئ مما كان يَدَّعيه من قبل .

وفى هذا النموذج من البشر يقول القرآن : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ (العنكبوت: ١٠، ١١).

ونحو هذا النموذج الذى يقول بلسان مقاله ما يكذبه لسان حاله ، نموذج آخر ذكره القرآن فى سورة الحج : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحج: ١١) .

فالمحن التى تعرض لأصحاب الدعوات هى التى تميز هذه الأصناف وتفرزهم من بين المؤمنين ، وتنفي الخبث من صفوفهم كما ينفى الكير خبث الحديد .

٢- تربية المؤمنين ، وصقل معادنهم ، وتمحيص ما فى قلوبهم ، فهم ينضجون بالمحن كما ينضج الطعام بالنار .

يقول الله تعالى تعقيباً على معركة أُحد : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(آل عمران: ١٤٠، ١٤١)

ويقول فى موضع آخر من نفس السورة : ﴿ لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (آل عمران: ١٥٤) .

٣- زيادة رصيدهم ومقامهم عند الله ، فهو يرفع درجاتهم ، ويضاعف حسناتهم ، أو على الأقل - يكفر خطاياهم ، حتى يمشى أحدهم على الأرض وما عليه خطيئة ، غسلته المحن غسلاً ، وطهرته الشدائد تطهيراً .

وإذا كانت الخطايا لازمة للبشر ، لأنهم ليسوا ملائكة مطهرين ، ولم تضمن العصمة من الذنوب لأحد غير الأنبياء ، فإن من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن يتعهدهم بالابتلاء بعد الابتلاء ، لتتحات عنهم الخطايا بالصبر والاحتساب كما يتحات ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس .

وفى الحديث الصحيح :« ما يصيب المسلم من هَمٍّ ولا غَمٍّ ولا نَصَبٍ ، ولا وَصَبٍ ، ولا حُزْنٍ ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه». (رواه البخارى)

• ضرورة الصبر لرسل الله

وإذا كان الصبر ضرورة لازمة لأهل الإيمان ، فهو أكثر لزوماً لرسل الله عليهم السلام ، لأنهم مبعوثو العناية الإلهية لتغيير المجتمعات ، وتحويل وجهتها ، وإنشائها خلقاً آخر ، فى عقائدها وشعائرها وأخلاقها وأعمالها . وهكذا يقف أنبياء الله وجهاً لوجه أمام المخالفين والمعاندين ، وهم أكثر الناس ، ممن أضلهم الهوى أو أعماهم التقليد ، أو استبعدتهم الدنيا ، أو أفسد قلوبهم الكبر والحسد .

وفى هذا جاء الحديث النبوى : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل».

وكلما كان قوم الرسول أكثر إغراقاً فى الضلال كانت حاجته إلى الصبر أكثر ، مثل أُولى العزم من الرسل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام .

ولما كانت دعوة محمد ﷺ دعوة عامة شاملة ، فهى دعوة لكل الأجناس والألوان والأوطان والطبقات ، وهى دعوة لتغيير العقائد والمفاهيم والشعائر ، والتقاليد ، والنظم ، والأوضاع ـ من أجل ذلك كان خصومها أكثر ، والعداء لها أكبر ، وكانت حاجة مؤسسها إلى الصبر أعظم .

ولا غَرو أن نجد آيات القرآن العزيز تأمر الرسول ﷺ بالصبر فى مواضع عدة ، كلها ـ عند التحقيق ـ فى القرآن المكى .

وسر ذلك أن العهد المكى هو عهد الاضطهاد والفتنة ، وقلة الصبر ، وضعف الأتباع . فقد كانوا ـ كما وصفهم القرآن ـ قليلاً مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس .

وقد ظل النبى ﷺ نحو عشر سنوات يدعو فلا يستجيب لدعوته إلا الواحد بعد الواحد ، ثم كان العام العاشر ففقد فيه سنده فى الداخل : خديجة زوجه ، وسنده فى الخارج : أبا طالب عمه ، فسماه عام الحزن !

وفى خلال هذه الأعوام حاربته قريش بكل صنوف الأذى ، فى نفسه وفى أصحابه ، بالقول والفعل ، باللسان واليد . . بسلاح الاستهزاء والافتراء . وسلاح الضغط العائلى ، وسلاح المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية ، وسلاح التعذيب البدنى .

ولم يقف ﷺ عند حدود قريش ، فكان يعرض دعوته على قبائل العرب كلما جاء موسم الحج ، فلم يظفر بمن يلبى نداءه . ورحل إلى ثقيف بالطائف ، فلم يجد عندهم أذناً تسمع ، ولا قلبا يعى ، ولا يداً تنبسط إلا بالأذى .

ويرجع من هذه الرحلة بجراح دامية فى قدميه مما قذفه به سفهاء الطائف من حجارة ، وبجراح أعمق غوراً فى قلبه ، مما رده به زعماؤها من أقوال هى أشد من الحجارة إيذاء ، فهذه تؤلم الأبدان ، وتلك تؤلم القلوب . ولا نجد تعبيراً عن الأسى والأسف لما حدث أبلغ من تلك المناجاة الرقيقة المؤثرة المعبرة التى ناجى بها الرسول ربه فى عودته : «اللّهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى

على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى . . . إلى أن يقول : « إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أُبالى ولكن عافيتك أوسع لى ».

• أوامر الله لرسوله بالصبر

من أجل هذا كثرت أوامر الله لرسوله بالصبر . حتى تكرَّر فى عشرين موضعاً من كتاب الله ، بعضها بصيغة « اصبر » وهى ثمانى عشرة ، واثنتان بصيغة « اصطبر »[1].

ولو أخذنا هذه الأوامر ـ بصيغة (اصبر) ـ حسب ترتيب المصحف لوجدنا هكذا :

١- فى الآية (١٠٩) من سورة يونس وهى ختام السورة : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ والآية التى قبلها تمهد لهذا الأمر بأمر آخر للنبى حيث تقول : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس:١٠٨).

٢- وفى سورة هود بعد أن قَصَّ الله على نبيه قصة شيخ المرسلين وأبى البشر الثانى نوح ، وما حدث له مع قومه ، ومع ابنه قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود:٤٩).

٣- وفى سورة هود أيضاً بعد أن قَصَّ الله على رسوله قصص مجموعة من رسل الله مع أقوامهم ، وما عانوه فى سبيل دعوة التوحيد والإصلاح ، وبعد أن أمره الله ومن معه بالاستقامة على أمر الله ، وحذَّرهم من الطغيان والركون إلى الظالمين ، وأعقب ذلك بالأمر بإقامة الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل، جاء الأمر بالصبر ، لأنه العدة اللازمة لتنفيذ ما سبق من أوامر ، واجتناب ما ذكر من نواه : ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود:١١٥).

---

(١) وهما قوله تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم:٦٥) ، وقوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (طه:١٣٢) .

٤- وفى سورة النحل ، وفى خواتيمها يبين الله لرسوله منهج الدعوة إلى سبيل ربه من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ، ثم يشير إلى دستور المعاملة مع المتصدين للدعوة والدعاة بالعدوان ، وهو معاقبة المعتدى بمثل اعتدائه دون التفكير فى أكثر من المثل ، وإيثار الصبر والصفح عند المقدرة ، فهو أليق بأصحاب الدعوة . ثم يُعَقِّب على ذلك آمراً بالصبر ، الذى لا يُعين عليه ، ولا يُوفِّق إليه إلا الله ، الذى لا يتخلى عن المتقين المحسنين من عباده ، ومنهم الصابرون ، وهذه هى الآيات الثلاث الأخيرة : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٦-١٢٨).

وفى قوله : ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ تشريف للصبر : حيث أضافه تعالى إلى نفسه بعد الأمر به ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (المدثر:٧) وإن كان كل شىء فى الوجود لا يقوم إلا به ، وكل عمل صالح لا يكون إلا له ولكن التخصيص دليل التكريم والتشريف .

٥- وفى سورة الكهف : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الكهف:٢٨).

٦- وفى سورة طه : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه:١٣٠) .

٧- وفى سورة الروم وهى آية الختام : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم:٦٠).

٨- وفى سورة (ص):﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص:١٧)

٩- وفى سورة غافر جاء الأمر بالصبر مرتين : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر:٥٥).

١٠- ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (غافر:٧٧).

١١- وفى الأحقاف فى آية الختام : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف:٣٥).

ولم يأمر الله رسوله ﷺ بالاقتداء بأسلافه من الرسل فى خُلُقٍ معين إلا فى الصبر ، تنبيهاً على عِظم منزلته ، وشدة الحاجة إليه ، ومشقته على النفس .

١٢- وفى سورة (ق) : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾(ق:٣٩).

١٣- وفى سورة الطور ، وهى الآية قبل الأخيرة : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الطور:٤٨).

وفى هذه الآية الوجيزة تربية وتقوية وتسلية وترضية للنبى ﷺ من عدة وجوه . فهو مأمور بالصبر لحكم ربه ، وهو سبحانه لا يحكمن إلا بالحق والعدل ، وهو أحكم الحاكمين ، وخير الحاكمين .

ولطيفة أُخرى فى هذه الآية وهى قوله : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ومن كان بعين الله وبمرأى منه وملحظ فلن يُغلب ولن يضيع .

ونظير هذا قوله تعالى لموسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ (طه:٣٩) ولكن الملاحظ أن العبارة هنا جاءت بالجمع ، جمع العين (أعين) جمع ضمير المتكلم ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وفى ذلك زيادة فى التثبيت والتأسيس .

وأمر ثالث فى هذه الآية وهو قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وقد أعقب الأمر بالتسبيح الأمر بالصبر فى جملة آيات . ولعل السر فى ذلك أن التسبيح يعطى الإنسان شحنة روحية تحلو بها مرارة الصبر ، وينشرح بها ضيق الصدر ، وفى مثله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٧-٩٩).

ثم إن التسبيح بحمد الله هنا يحمل معنيين جليلين ينبغى أن يرعاهما من نزل به البلاء :

الأول : تنزيه الله تعالى ـ وهو معنى التسبيح ـ أن يفعل شيئاً عبثاً ، أو يصدر عنه ما لا يليق بكماله وجوده وحكمته . كيف ؟ وهو البرُّ الرحيم العليم الحكيم ؟ !

فهو إذا ابتلى بعض عباده المصطفين ، فإنما ذلك لحكمة يعلمها . وإن لم يكونوا يعلمونها .

الثانى : أن له تعالى فى كل محنة منحة ، وفى كل بلية نعمة ، بل نِعماً ، ينبغى أن تُذكر فتُشكر وتُحمد ، وهذا سر اقتران التسبيح بالحمد هنا .

وفى ذكر كلمة « رب » مضافاً إلى (كاف الخطاب) ، بعد لفظ الجلالة من الإيناس والإيذان بكمال التربية والرعاية والقرب ، ما يقوِّى العزم ، ويُذهب الهم ، ويشرح الصدر .

١٤- وفى سورة القلم : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ (القلم:٤٨) ـ يعنى يونس عليه السلام حين ترك قومه مغاضباً ـ وقبل هذه الآية بآيات جاء قوله تعالى : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ (القلم:٤٤،٤٥).

فالنص يقول : ذرنى وإياه . يريد : كلنى إليه . فإنى أكفيك ، أى حسبك انتقاماً منه أن تكل أمره إلىَّ ، وتُخلى بينى وبينه . فإنى عالم بما يجب أن يُفعل به قادر على ذلك . ثم قال : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ ـ أى سنستنزلهم إلى ما نريد درجة درجة ، وهم لا يعلمون ، لأنهم فى غمرة ساهون .

١٥- وفى سورة المعارج : ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ (المعارج:٥-٧) ، ووصف الصبر بالجمال من التعبيرات القرآنية فى وصف بعض المعانى بالجمال الذى كان المعتاد أنه وصف للأشياء الحسنة . فقد ذكر القرآن الصبر الجميل هنا ، وفى سورة يوسف كما تحدث عن « الصفح الجميل »[١] ، و« الهجر الجميل »[٢] وقد نقل ابن القيم عن شيخه ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قوله : الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا معه ، والصفح الجميل هو الذى لا عتاب معه ، والهجر الجميل هو الذى لا أذى معه .

---

(١) فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (الحجر:٨٥) .

(٢) فى قوله تعالى : ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل:١٠) .

١٦- وفى سورة المزمل :﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾(المزمل:١٠)

وهنا نجد هذه العبارة : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ تكررت أربع مرات فى القرآن لتدل بوضوح على أن أقوالهم الجارحة فى شأن النبى ﷺ كانت عميقة الأثر فى نفسه ، وكانت تؤذيه أشد الإيذاء ، مثل قولهم : مجنون ، وساحر ، ومفتر ، وقولهم عن القرآن : أساطير الأولين . وقولهم فى الله ما لا يليق بجلاله . ولهذا تكرر الأمر بالصبر على ما يقولون ، كما جاء فى أكثر من آية : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ . . . ﴾(يس:٧٦).

١٧- وفى مطلع سورة المدثر - وهى من أوائل ما نزل من القرآن - يأمر الله رسوله الكريم أن يدع لحافه ودثاره ، وينهض لدعوته ، مُبلِّغاً مُنذراً ، مُنفِّذاً ما أمر الله به ، مُجتنباً ما نهى الله عنه . وهنا يأمر القرآن بالصبر لربه ، وبهذا يكون الصبر عدَّة له فى جهاده ، وسلاحاً ماضياً فى معركته مع الجاهلية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (المدثر:١-٧). وهذه الجملة : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ تحتمل معنيين :

أحدهما : اصبر لربك ، أى لحكمه وقضائه وبلائه . فهى كآية الطور : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (الطور:٤٨) ، وكذلك فى سورة الإنسان وفى سورة القلم : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾(الإنسان:٢٤- القلم:٤٨).

والثانى : اجعل صبرك لله تعالى ، لا لأحد غيره ، ولا لشىء سواه ، أى أخلص النية فى صبرك ، واجعله لربك وحده .

وهذا هو الراجح عندى ، وهو الذى يدل عليه تقديم الجار والمجرور . فهو يفيد الاختصاص والحصر . وذلك أن الصبر المحمود هو الذى يكون لله تعالى لا للدنيا ولا للمحمدة ولا للسمعة . ولهذا أثنى الله على قوم فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ . . . ﴾(الرعد:٢٢).

ومن الطريف هنا موازنة بعض الصوفية بين الصبر لله والصبر بالله . فيقول الشيخ الهروى صاحب «منازل السائرين» : أضعف الصبر الصبر لله ، وهو صبر العامة . وفوقه الصبر بالله ، وهو صبر المريدين».

ويرد عليه شارحه المحقق ابن القيم فيقول :« الصواب أن الصبر لله فوق الصبر بالله ، وأعلى درجة وأجل ، فإن الصبر لله متعلق بإلهيته ، والصبر بالله متعلق بربوبيته . وما يتعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته .

ولأن الصبر له عبادة ، والصبر به استعانة ، والعبادة غاية ، والاستعانة وسيلة والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها .

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به . وأما الصبر له فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين وأصحاب مشهد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(الفاتحة:٥) .

ولأن الصبر له : صبر فيما هو حق له ، محبوب به ، مرضى له ، والصبر به قد يكون فى ذلك ، وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون فى مكروه أو مباح فأين هذا من هذا »؟[1].

١٨- وأخيراً جاء الأمر بالصبر فى سورة الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾

(الإنسان:٢٣،٢٤)

وهنا تجد الآية الأولى تمهيداً وتقديماً للآية الثانية التى أُمر فيها الرسول بالصبر . إذ المقصود بالأُولى ـ كما ذكر الفخر الرازى فى تفسيره ـ تثبيت الرسول وشرح صدره ، فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر ، فذكر الله تعالى أن ذلك وحى من الله ، فلا جَرَم أن بالغ وكرَّر الضمير ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ بعد إيقاعه اسماً لـ « إنَّ » تأكيداً على تأكيد أبلغ ، كأنه تعالى يقول : إن كان هؤلاء الكفار يقولون : إن ذلك كهانة ، فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة : إن ذلك وحى حق ، وتنزيل صدق من عندى .

وهذا فيه فائدتان :

إحداهما : إزالة الغم والوحشة عن خاطره ﷺ بسبب طعن أُولئك الكفار ، فإن بعض الجهَّال إن طعنوا فيه فإن جبار السموات عظَّمه وصدَّقه .

---

(١) مدارج السالكين جـ٢ صـ ١٦٨ ، ١٦٩ .

والثانية : تقوية قلبه على تحمل التكليف المستقبل .

وبعد هذه المقدمة أمر تعالى بالصبر فقال : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (الإنسان:٢٤) وقد سبق هذا التعبير فى سورة الطور وفى سورة القلم . ويذكر الرازى هنا : أن معنى : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ إما أن يكون فى تأخير الإذن فى القتال (الذى كان يتعجله بعض أصحابه) أو يكون المعنى عاماً فى جميع التكاليف . أى فاصبر فى كل ما حكم به ربك ، سواء أكان ذلك تكليفاً خاصاً بك من العبادات والطاعات ، أو متعلقاً بالغير ، وهو التبليغ وأداء الرسالة ، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك »[1] .

والتعميم عندنا هو الأرجح ، لأنه هو الأليق بالسياق ، وإن كان الذى يُفهم من كلام الرازى أن المراد بالحكم فى الآية هو الحكم الشرعى التكليفى ، وهو جزء من المعنى المراد فيما أرى ، ولكنه ليس كل المراد ، إذ لم يدخل فيه الحكم الكونى القدرى . أى ما قضاه الله وقدَّره وحكم به ، وجرى به قلم المقادير من محن وشدائد ومشاق ، بل لعل هذا هو المتبادر هنا أكثر من المعنى الثانى ، لارتباط الصبر فى الذهن والعادة ، بما قضاه الله من بلايا . فالحكم هنا هو القضاء الإلهى ، وليس الأمر والنهى والتكليف . وهو الذى جاء فى قوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (يونس:١٠٩) ، وقول شعيب لقومه : ﴿ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (الأعراف:٨٧) .

• حكم الصبر

ذكر الإمام ابن القيم فى « المدارج » أن الصبر واجب بإجماع الأُمة .

وهذا صحيح فى الجملة لا فى التفصيل . ويكفى فى الدلالة على ذلك :

١- أن الله أمر به فى آيات كثيرة ، وأصل الأمر إفادة الوجوب . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ . . . ﴾ (البقرة:١٥٣) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ ﴾ (آل عمران:٢٠٠) ، ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (النحل:١٢٧)

---

(١) التفسير الكبير للرازى جـ٣ صـ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

٢- أنه نهى عن ضده فى مثل قوله تعالى :﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ (الأنفال:١٥)، فإن تولية الأدبار ترك للصبر والمصابرة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد:٣٣) فإن إبطالها ترك للصبر على إتمامها . وقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ (آل عمران:١٣٩) فإن الوهن من عدم الصبر . وقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف:٣٥) فإن الاستعجال من عدم الصبر .

٣- أن القرآن الكريم رتَّب عليه خيرى الدنيا والآخرة . فلا يفوز الإنسان بمحبوب ولا ينجو من مكروه إلا بالصبر . وما كان كذلك ، كان تحصيله واجباً .

ومع هذا نقول : إن حكم الصبر إنما يكون بحسب المصبور عنه أو المصبور عليه . فالصبر عن المحرمات واجب ، وتتأكد درجة وجوبه بمقدار عظم المحرَّم .

أما الصبر عن المكروه ، أو عما هو خلاف الأفضل والأمثل ، فلا يصل إلى درجة الواجب : وإنما هو مستحب ، أو خير من مقابله .

مثال ذلك أن مقابلة السيئة بمثلها مشروع فى الإسلام، وأفضل منها العفو والصفح. ومن هنا لا يكون الصبر عن مقابلة السيئة بمثلها واجباً ، بل أمراً مندوباً إليه مرغوباً فيه . وفى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (النحل:١٢٦) ومثله : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الشورى:٤١-٤٣).

فالصبر هنا عن المعاقبة بالمثل ، وعن الانتصار بعد الظلم إنما هو فضيلة لا فريضة ، يُحمد ويُثاب مَنْ فعلها ، ولا يُذَم ولا يُعاقَب مَنْ تركها . فليس فى القرآن ما فى الإنجيل من النهى عن مقاومة الشر بالشر والسيئة بمثلها ، وأمر من ضُرب على خده الأيمن أن يُدير للضارب خده الأيسر ، فليس هذا بمستطاع لكل الناس ، وفى كل الأحوال ، وإنما فيه الترغيب فى الصبر والصفح ودفع السيئة بالتى هى أحسن ، وهذه هى مرتبة الفضل والإحسان ، مع إجازة مقابلة السيئة بالسيئة ، والعدوان بالعدوان ، وهذه هى مرتبة العدل ، والبادى أظلم ، ولكن الشرط أن يُقابَل الاعتداء

بمثله ، دون زيادة أو حيف ، فى الكم أو الكيف . أما أن تكيل للمعتدى الصاع صاعين . وترد له اللطمة لطمتين ، فهذا هو العدوان الممنوع . ولهذا أكد القرآن «المثلية» فى هذا المقام دائماً بمثل قوله : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ (الشورى:٤٠)،﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾(البقرة:١٩٤)،﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾(النحل:١٢٦) .

ونحو ذلك ما جاء فى الصبر عن زواج الإماء المؤمنات ، وإن رخَّص القرآن فيه لمن لم يستطع الزواج من الحرائر المؤمنات فقد قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ ﴾ إلى أن قال ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (النساء:٢٥).

ومثل ذلك يقال فيما يُصبر عليه ، فالصبر على الواجبات واجب ، وعلى المستحبات مستحب .

فالصبر على أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها واجب مؤكد ، وفريضة لازمة . أما الصبر على قيام الليل فهو مستحب . . وهكذا .

وبعد أن كتبت هذا ، قرأت فى «قوت القلوب» هذه العبارات : «إن الصبر فرض وفضل ، يُعرف ذلك بمعرفة الأحكام . فما كان أمراً أو إيجاباً فالصبر عليه أو عنه فرض ، وما كان حقاً وندباً ، فالصبر عليه أو عنه فضل» ا هـ [1].

وفصَّل ذلك الإمام الغزالى فى «الإحياء» فقال : «اعلم أن الصبر ينقسم ـ باعتبار حكمه ـ إلى فرض ونفل ، ومكروه ومحرَّم . . فالصبر عن المحظورات فرض ، وعلى المكاره نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور ، كمن تُقطع يده ، أو يد ولده ، وهو يصبر عليه ساكتاً . وكمن يقصد جريمة بشهوة محظورة ، فتهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله ، فهذا الصبر محرَّم .

---

(١) قوت القلوب جـ٢ صـ ١٩٩ .

والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع . فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغى أن يُخيِّل إليك أن جميعه محمود ، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة »[1].

فالصبر ـ إذن ـ إنما يُحمد إذا كان على بلاء لا يقدر الإنسان على إزالته ، أو التخلص منه ، فأما ما كان مقدوراً على دفعه أو رفعه فليس الصبر عليه مطلوباً فى الدين .

يقول الغزالى : « كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه . . فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه ، فلا يؤمر بالصبر عليه ، بل يؤمر بإزالة الألم . وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته »[2].

وفى مثل هذا جاء وعيد القرآن الشديد فى شأن الذين يقيمون فى دار الشرك والحرب للإسلام ظالمى أنفسهم ، عاجزين عن إقامة فرائض دينهم ، وهم قادرون على الهجرة إلى دار الإسلام . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء:٩٧-٩٩).

● الباعث على الصبر

لم يكتف القرآن بالأمر بالصبر ، والثناء على أهله ، ونوط كل خير عاجل أو آجل به .

بل عنى ـ إلى جوار ذلك ـ بالباعث على الصبر ، والدافع إليه . فالصبر المحمود فى القرآن هو ما كان لله تعالى ، لا لكسب محمدة أو بطولة عند الناس .

ولهذا قال سبحانه لرسوله : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (المدثر:٧) أى اجعل صبرك لربك لا لأحد غيره . فالصبر عبادة وقربة إلى الله جل جلاله .

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ صـ ٦٩ .

(٢) إحياء علوم الدين جـ٤ صـ ١٢٧ .

وأثنى القرآن على أُولى الألباب الذين لهم عُقبى الدار ، فكان من أوصافهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (الرعد:٢٢). . فلم يمدحهم لمجرد أنهم صبروا ، بل لأنهم صبروا ابتغاء وجه ربهم .

وهذا النص القرآنى يشير إلى حقيقة هامة فى الأخلاق القرآنية ، وهى « صبغتها الربانية » فهى ليست أخلاقاً وضعية ولا مادية ، لا من حيث مصدرها ولا من حيث غايتها .

وإنما هى أخلاق ربانية ، سواء نظرنا إليها من جهة مصدر الإلزام بها أم من جهة الغاية الباعثة والحافزة .

فمصدرها هو الوحى الإلهى ، هو أمر الله تعالى ونهيه .

وغايتها ابتغاء وجه الله تعالى .

• المؤمن مأمور بالمصابرة مع الصبر

والقرآن لم يكتف من المؤمنين بمجرد الصبر : بل طلب منهم درجة أخرى بعد الصبر ، وهى المصابرة .

فقد قال تعالى فى ختام سورة آل عمران : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:٢٠٠).

وصيغة المصابرة تفيد مفاعلة من جانبين ، والمعنى هنا : مغالبة الأعداء فى الصبر . وذلك أننا إذا كنا نصبر على حقنا ، فإن المشركين يصبرون على باطلهم . فلا بد أن نغلبهم بصبرنا ، وأن يكون صبرنا آكد وأقوى .

ولهذا حكى القرآن عن المشركين استمساكهم بالصبر على ضلالهم وشركهم وتواصيهم بذلك .

ففى سورة الفرقان يتحدثون عن النبى ﷺ ساخرين : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾(الفرقان:٤١،٤٢)،

وفى سورة (ص) يقول الله تعالى حاكياً عنهم : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ (ص:٦).

فإذا كان هذا شأن أهل الشرك فى التنادى بالصبر على آلهتهم ، فصابروهم أيها المؤمنون وغالبوهم . بالصبر على توحيدكم وعقيدتكم ، والاستمرار فى تأييد دينكم ، والتضحية فى سبيله .

ومن ثَمَّ وصلت الآية الأمر بالصبر والمصابرة بمعنى ثالث وهو : المرابطة وهى صيغة مفاعلة مشتقة من ربط الخيول فى الجهاد .

وقد قيل فى قول تعالى : ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ ﴾ (آل عمران:٢٠٠) أنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى ، فالصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة . والمرابطة ـ كما قال ابن القيم [١] : مفاعلة من الربط ، وهو الشد ، وسمى « المرابط » لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع . ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة الله ينتظرها : مرابط . ومنه قول النبى ﷺ : « ألا أُخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط »[٢] . .

فالصبر مع نفسك . و« المصابرة » بينك وبين عدوك . و« المرابطة » الثبات وإعداد العُدَّة . وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو ، فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب ، لئلا يهجم منه الشيطان ، فيملكه أو يخربه أو يشعثه [٣].

● الصبر المحمود ما كان فى أوانه

والمهم فى الصبر أن يكون فى أوانه ، فإن الشىء إذا كان فى أوانه أثمر وآتى أكله ، أما إذا كان بعد فوات الأوان ، فلا قيمة له . ولا فائدة منه ، فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب ، لئلا يهجم منه ، وهذا ما حكاه القرآن عن صبر أهل النار .

---

(١) مدارج السالكين جـ٢ صـ ١٥٩ .
(٢) رواه مسلم .
(٣) مدارج السالكين جـ٢ صـ ١٥٩ .

قال تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١) .

فالصبر هنا لا ثمرة له ولا وزن، لأنه صبر فى غير محله، وبعد انتهاء أمده وزمانه .

ومن هنا أيضاً ذكر المكذِّبين الذين يُدعُون إلى نار جهنم دَعًّا ـ قائلا : ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الطور: ١٤-١٦).

* * *